

الهوية والآثار (نموذج العمارة)

اعداد د. محمد الطيب عقاب

لا أريد أن أدخل بكم في تعريف كلمتي الهوية والآثار، ولكن يكفي القول أن - أولا - الهوية هي الصورة والمظهر المثالي لارتباط الانسان بثقافته الأصلية بأوسع معانيها، وأنها المحك الذي تشد به شخصيته، حتى يستقيم وينتج القالب الذي تفرغ فيه ارهاصاته العلمية، التي نسميها في الأخير - ثانيا - الآثار، المجسدة عن مخيلته.

إذن، من هنا يمكن وضع تصور بسيط لمفاهيم رموز الآثار للإنسان، سواء المبدعة من لدنه، أو بفعل تفاعله مع الأعمال الأخرى، فاستساغها وأدخلها في حضارة بلاده، وإن كانت هذه الأخيرة قليلة نسبيا وغير بارزة في حضارة الجزائر، بل اعتمد انسانها سبيل

الابتكار والابداع مع الاحتفاظ بالارث القديم خاصة مع الدولة الرسمية بدءا منها بتيهت وانتها بسدراته، فبقيت الرموز الثقافية متداولة بين السكان إلى يومنا هذا.

والابتكار الجزائري في مجال الآثار يبرز جليا في مئذنة قلعة بني حماد، المعتبرة من أقدم المآذن وكبرياتها في العالم الاسلامي، وانها المثال النموذجي المحتذى من قبل الموحدين ومن جاء بعدهم، لما احتوته من تقاسيم عمائرية تناوبت فيها العناصر بين الاستطالة والقصر في تنسيق تناغمي رقيق، مشفوع بقشبية من الخزف المبرق ذي اللون الأزرق القاتم، وما توجت به من قبيبات نصفية ذات الشعاعات الوهاجة، التي يبدو أنها معاصرة لقبة محراب مسجد سيدي عقبة المشعة أيضا، وما أحسب أن هناك من سبقها في الظهور بالجزائر.

وقد يدخل في هذا المجال من الابتكار مع المحافظة على الارث الحضاري ما ازدان به باب سيدي عقبة التذكاري من رموز في الحضارة الثقافية الجزائرية القديمة، مع الاستغناء بالعناصر الهندسية التي هي سمة الثقافة الجزائرية القديمة، واستبدالها بالرموز النباتية القليلة التحوير، مما دفع بالباحث الفرنسي مارسيه أن شبهها بسعاف النخيل المستعملة من طرف المسيحيين في الجزائر، وغاب عن ذهن هذا الباحث أن المسيحيين لم يعرفوا ذلك إلا في الفترة الاسلامية المتوسطة.

ومهما كان الأمر فإن زخرفة باب سيدي عقبة تجسد الثقافة الجزائرية الأصيلة بكل أبعادها الروحية والفنية، بعيدة كلية عن الفن

القبطي، حسبما ادعى أيضا مارسيه وهو توزيع فريد من نوعه لكثرة تنوع عناصرها الزخرفية في دفعة واحدة.

وتأثر الجزائريون بالثقافة المحيطة بهم، فاستقدموا من الأندلس حذاق الصناعات، الأمر الذي ساعدهم على تقليد الزخرفة الجدارية المجسمة والمعروفة بالطراز القرطبي، والتي ما زال أثرها متداولاً في الجزائر العميقة بمنطقة الصحراء، مع ادخال العناصر المعمارية خاصة الأقواس المفصصة والقباب المخرمة.

وإن كانت القبة المخرمة لمحراب جامع تلمسان الكبير فريدة من نوعها في العالم الإسلامي، إن لم تكن أقدمها. غير أن العقود المفصصة استخدمت فقط في البلاطة العمودية على المحراب، وفي أماكن أخرى غير المسجد كالأضرحة مثلاً.

إن هذه العقود أصبحت منذ العهد الموحي تعرف بعقود المقرنصات والتي تزdan بها جدران منازل الجنوب الصحراوي للجزائر، مما يدفعنا إلى القول بأنهم تمكنوا بهذه العلامات الزخرفية كارت ورثوه عن المرابطين، بمن في ذلك نمط المساجد بهذه المنطقة، حتى أنه ليخال إلينا أنها من ذلك العهد.

ويمكن الاسراع بالتاريخ إلى العصر الحديث، لأن الماضي يفهم بالحاضر، وإن السلسلة لم تنفصم على حسب اعتقاد ابن الرومي. فالنموذج المقترح هو المسكن المرتسم على هيئة المكعب المتصف بتقاسيم البروز والضمور، وهي تقاسيم هندسية أمدت المبنى منذ العهد الحمادي صفة الاتزان، كما تزاوجت من خلالها المادة البنائية

مع الظل، وسمحت أيضا تلك التقاسيم من تحجيم وتقليل المؤثرات الطبيعية، وتوزيعها على المبنى بنسب متدرجة، تكون متكيفة مع ما يلائم تحمل جسم الانسان بداخله. دون أن ننسى أصالة المرتسم الذي يعود إلى تاريخ تطور الانسان مع المسكن، وأنه ليس وليد العصر المقترح، كما أنه ليس وليد منطقة محددة من العالم القديم، بل هو ارث مشترك لدى الشعوب القديمة بالمنطقة، مع اختلاف بسيط أملتة المعتقدات الشعبية والدينية معا.

غير أن القاسم المشترك في حضارة الجزائر خاصة والعالم الإسلامي عامة هو الممر المسقوف «السباط» الذي له دلالات خاصة في العمران القديم، كأن يكون لنهاية شارع كبير، وبداية لتكوينات لأحياء خاصة ذات الترابط العضوي الأسرية في حارة معروفة بهم، والذي غالبا ما كان يزود بباب الحارة أو السكة، وللسباط مآرب أخرى تخص تلك الجماعة من السكان، وفوق ذلك فهو مكسر للمد البصري نحو الحارات الخاصة.

ومن الوحدات المشبعة بالرفه المعماري المتقن يلاحظ تشكيل مدخل المسكن المعروف بالسقيفة المتكونة من عدة وحدات، من أولى ووسطى وخلفية، وكل واحدة منهن لها وظيفة خاصة، وأن الوسطى بمثابة غرفة الاستقبال. ذلك ما يلاحظ عليها العناية والابهار الفني والتفخيم البنائي للعناصر البنائية.

وقد رأينا سابقا الهيكل البنائي المكعب والفضاء الوسطي فيه المفتوح على السماء، المعوض للعالم الخارجي بالنسبة للمرأة على الأخص، فمنه تستمد أشعة الشمس والهواء المتجدد.

وطبعا يحف بالصحن أو الفضاء المفتوح أروقة أربعة أو أقل من ذلك في بعض المنازل، والتي تعتبر الواسطة بين الصحن والغرف، أقيمت الأروقة بعناصر بنائية رشيقة أبهرت أفئدة الغربيين الذين قالوا أن الفن الإسلامي يمتاز بالرشاقة والافتتان، وتلك العناصر هي الأعمدة المتعددة النمط، والعقود المتميزة بتعددية التشكيل، فهي مخصصة القاعدة وبدنية الوسط إلى ضمور في القمة، مما يوحي بتعدد المراكز فيها. وتسمى معماريا بالعقد المنكسر المتجاوز.

يتوج تلك الأعمدة نوعان من التيجان، الأول كورنثية النمط وأخرى بسيطة محلية عرفت بالجزائرية، أفرزتها التكوينات المتدرجة القائمة على التناوب المزدوج بين الصعود والغور في القطعة نفسها. وقد أرجع الباحث الآخر غولفان هذا النمط من التيجان إلى العهد الفرعوني، معتمدا في ذلك على التاج المصري القديم المزخرف بزهرة اللوتس.

ونفس الترتيب الانشائي للمعمار في الطابق العلوي، مضاف إليه عنصر الدرايزين الذي سيمر معنا بعد قليل. ولكن يجب الوقوف عند الباب، وقسميه، المقتطعين من دفة واحدة، الأول الدفة الكبرى وفي صلبها باب الخوخ أو الخويخة. وينفرد الجزائري من بين الصناع المسلمين بزخرفة الباب على نمط غير سائد في أية حضارة إسلامية، بمن فيها الأندلسية، وهي زخرفة تقوم على المعين في القطعة المستطيلة، والزهرة في القطعة المربعة، وهما عنصران أساسيان في تكوين الباب نفسه بواسطة طريقة النقر واللسان أو التعشيق، دون اللجوء إلى تثبيت المسامير فيهما.

ولهذه التكوينات الزخرفية أثرها الفعال في صيانة الباب، من خلال تزاوج الظل مع الشمس، وبالتالي فالتوزيع الحراري على الباب يكون متدرجا في حالة امتدادها على سطحه.

وعنصر المعين أو المثلث رمز من رموز الحضارة الجزائرية التي مازال سائدا فيها منذ فجر التاريخ إلى اليوم وقد يكون لها مدلول ما، هل يمكن التعرف عليه، ربما!

وفي داخل الغرف الواحدية النمط المتبع عليه في كامل البلاد تتجسد فكرة الواحدية الثقافية من خلال توزيع العناصر الانشائية داخل الوحدة للغرفة من أيوان مصدر لها مواجه للباب إلى جناحيها المفصولين بحاجز جصي معقود مشبع بالزخارف الرائقة، التي ترجع جذورها إلى أعماق التاريخ الجزائري مع نكهة خاصة لفترة ما.

وهو ما يجسد في هذا اللوح للخزانة الجدارية من علامات خاصة وألوان زاهية، تبرز رقة الاحساس المرفه للإنسان الجزائري، في فترة اعتقد فيها الباحثون الغربيون أن لا روح لثقافة الجزائر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، لكن سرعان ما يناقضون أنفسهم بتأليفهم الواسعة في هذا المجال.

ولم يخل سقف الغرف من ثقافة العصر، الممزوجة بتأثيرات الفن الأوروبي، نتيجة اشراكهم في ذلك من طرف الحكام كأدوات تسخيرية لا أكثر ولا أقل. حيث أفرغ الإنسان ما استوعبه منها، وملأ الغرف بكل ما يريح النفس والعين ويدخل عليهما الاطمئنان والراحة. وقد امتد هذا الارث إلى المساجد أيضا.

وهذا نموذج مصغر من التأثيرات العثمانية المفضل لديهم وصل إلى الجزائر، بحكم التفاعل العضوي المفروض تاريخيا عليها، إنه العنصر الاشعاعي الذي وراءه أحياء كثير من المقومات الأساسية لمجتمعنا وليس كما يعتقد أمانة له.

أخيرا، وليس آخرا، العنصر الذي وعدتكم به وهو الدرازين القائم كشرفة صلبة من رهافة في الصنعة الفنية لأكثر من عنصر بين العميدات المتعددة التكوينات الفنية وبين التشبيكات النجمية وتوزيعات أو عرائيس برعمية إلى التخريعات النباتية المجسدة للزخرفة الرقشية من العنصر النباتي المحور عن أصله.

إذن، هذه بعض من لفتات حضارة بلادنا، أردتها أن تكون نبراسا، نيرا، مرتبطة بأصالة أجدادنا، فضلا عن تأثرهم الواضح بالفن الإسلامي الرائق والمفعم بالطلاوة والاشراق، والرقعة والوضوح معا، ولكن دون أن ننسى اسهاماتهم الواضحة البارزة في هذا المحيط المتلاطم من الثقافة المتنوعة.

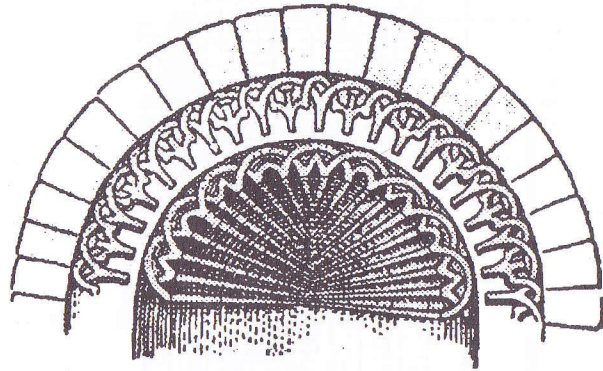
وأمل الطموح لأن يعقد ملتقى بابتكارات أجدادنا في محيط ثقافة البحر المتوسط، الذي ننتمي إليه قبل أي حضارة أخرى.

الهوامش:

- جون د. هواق، العمارة الإسلامية، شكل 81، ص 76 (بالفرنسية).

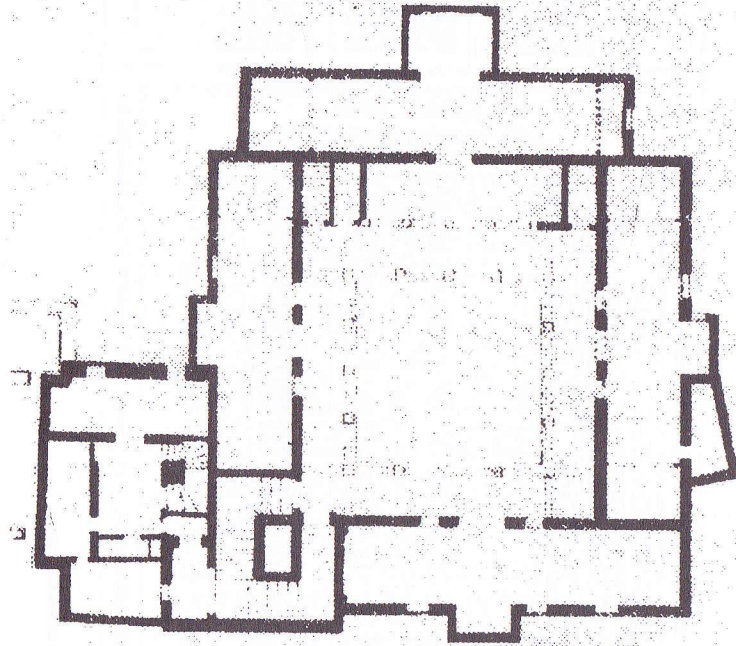
- ج. مارسيه، منونة عن الحجارة والجص والخشب (بالفرنسية).

- ج. مارسية، العمارة الإسلامية للغرب الإسلامي، ص 71 (بالفرنسية).
- بلانشي، باب سيدي عقبة، في نشرة الجمعية التاريخية للدراسات الشمال الافريقي، ج 2، ص 2 (بالفرنسية).
- إ. لومبير، تطور العمارة الإسلامية .. في شمال افريقيا، تعريب جليان عطا الله، ص 205.
- ر. بورويبة، الفن الديني الإسلامي في الجزائر، لوحة 131 (بالفرنسية).
- مارسية، المدونة، مرجع سابق، لوحة 5.
- م. ط. عقاب، قصور مدينة الجزائر (تحت الطبع).
- بورويبة، الدولة الحمادية، ص 252.
- بورويبة، حول ستة تيجان عثر عليها في قلعة بني حماد، في نشرة الآثار الجزائرية، م 4، ص 422.
- عن صورة التقطت أثناء العمل الميداني في ولاية الأغواط.

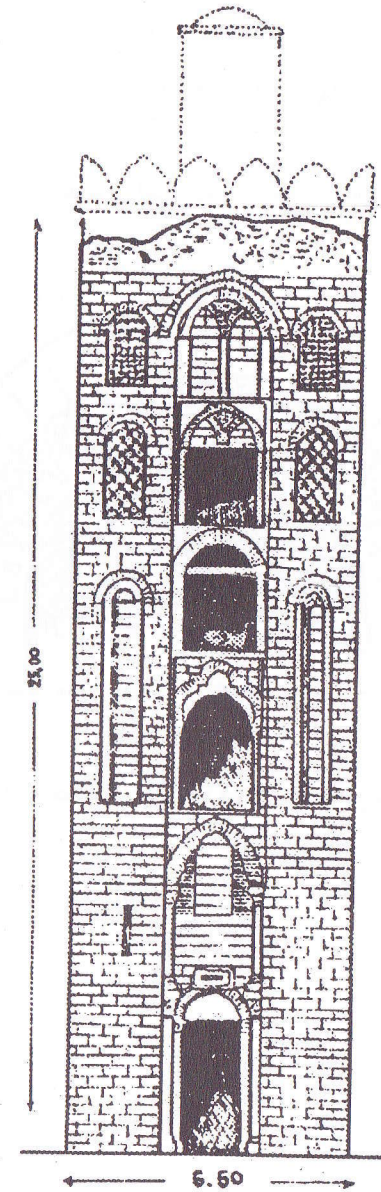


حنية من حنيات قلعة بني حماد

شكل رقم 1 : حنية من حنيات قلعة بني حماد



شكل رقم 3 : نموذج لاحت منازل الجزائر



شكل رقم 2 : منارة قلعة بني حماد : ع / عزوق

